نهــــاية الســــبـــاق

مـحـمـد العلوي العـمـاري ❖

كنتُ فيما مضى موظفًا صغيرًا في إدارة محلية تابعة لإحدى الوزارات الحكومية، وكانت مهمّتي تَنْحصر في تقييد الرسائل الإدارية الواردة والصادرة في سجلّ خاصّ يسمّى «سجلّ مكتب الضبط.» وكنتُ أتقاضى عن ذلك راتبًا شهريّاً، أتسلّمه في الأسبوع الأخير من كلّ شهر.

في صباح أحد هذه الأيام غادرتُ بناية المصلحة الجهوية للخزينة العامة، بعد أن تسلّمتُ مرتّبي. فوضعتُ الأوراقَ المالية في محفظة الجيب الجلدية التي أضعُ فيها أيضًا وثائقي الشخصية، وخبّأتُها في جيب سترتي الداخلي، ووضعتُ النقود المعدنية التي تكمل صافي المرتّب في جيب السترة الخارجي. ثم توجّهتُ إلى أقرب محطة لتوقف الحافلات، وكانت حينما وصلتُ إليها خاليةً من الناس. فجلستُ وحيدًا على كرسيّ حديديّ أنتظر الحافلة التي ستقلّني إلى الحيّ الذي كنتُ أقطنه.

كان النهار لا يزال في بدايته، وأشعةُ الشمس الدافئة تعلن عن بداية حلول فصل الصيف، وقد بدأت الحركةُ النشيطةُ تدبّ في شوارع المدينة.

في الجهة المقابلة للمحطة حديقةٌ عموميةٌ تبدو جميلةً من بعيد، أشجارُها عالية، وحاشيتُها مكسوّةٌ بالربيع الأخضر الكثيف الذي قُصّ بعناية وبشكل متناسق بديع، والأزهارُ تناثرتْ بين الأغصان وجذوع الشجر، وقطراتُ الندى تختبئ بين الورود. وفي لحظات نادرة، حينما يخلو الشارعُ من الشاحنات والسيارات والدرّاجات النارية، يُسمَعُ بوضوحٍ شدوُ البلابل وهي تَصْدح بأنغامها الشجيّة.

في هذا المكان تولّدَ لديّ شعورٌ رائقٌ بأنّ الحياة تَعْبرها في أوقاتٍ نادرةٍ لحظاتٌ ممتعةٌ تمضي بسرعة فائقة، كتلك اللحظات التي كنتُ أحياها في تلك الأثناء والتي ارتبطتْ بجمال المكان وبالاطمئنان الذي كنتُ أشعر به وأنا أتحسّسُ بين الفينة والأخرى الجانبَ الأيمنَ لسترتي.

تمنّيتُ ألاّ تصل الحافلةُ سريعًا. فحينما أصل إلى مسكني سأسلّم زوجتي نصفَ الراتب للمصاريف اليومية وحاجيات الأولاد، وسأوزّع النصف الباقي بين مالك الشقة والبقّال وبائع اللحم بالتقسيط، ثم تبتدئ فترةٌ أخرى من الانتظار الملّ حسابُها ثلاثون يومًا أخرى ممّا تَعدون.

كنتُ في تلك اللحظة مثلَ الممثّل الفقير الذي يَنْدمج بكلّ حواسه في دور الغنيّ الذي يجسّده؛ لكنْ حينما ينتهي العرضُ ويَنْزل الستار، يعود إلى واقعه المرّ. لذلك شعرتُ براحة الاسترخاء وأنا أحدّق في الأفق الأزرق، وتركتُ نفسي على سجيّتها حتى تستمتع بلحظاتها الهنيئة. لكنّ النعاس باغتني ثم أخذتني غفوةٌ، وتراءى لي رجلٌ ثريٌّ يوزّع المال على صفّ طويل من الفقراء.

إلا أنّ حلمي لم يستغرقْ وقتًا طويلاً، ذلك أنّني أفقتُ مذعورًا على لمسة خفيفة على صدري. وبسرعةٍ وضعتُ يدي في جيب سترتي الداخلي، فلم أجد حافظة نقودي!

وجّهتُ بصري في الاتجاهات المختلفة للشارع، فظهر لي على الجانب الأيمن منه شخصٌ يمشي مهرولاً ويلتفت وراءه وينظر إليّ بين الفينة والأخرى. ومن هيئته وحركاته المريبة أيقنتُ أنّه الفاعل، وخمّنتُ أنّه ربما تتبّع خطواتي منذ أن خرجتُ من مصلحة الخزينة الجهوية، أو شاهدني أتحسّسُ الجانبَ الأيمن من صدري فانتظر حتى غفوتُ ثم انتشل حافظةَ نقودي.

نهضتُ أجري وراءه، فأخذ يجري هو الآخر مبتعدًا. لكنّني استطعتُ أن أقلّص المسافةَ التي كانت تَفْصل بيننا بعد لحظات قليلة

بدا السارق قويَّ الجسم ومفتولَ العضلات، رغم قصر قامته. كان ينتعل حذاءً رياضيّاً، ويَلْبس قميصًا دون أكمام، ويضع على رأسه طاقيةً مزركشةً بالألوان. كان، على ما قدّرتُ، في مثل سنّي تقريبًا، في حدود الخامسة والثلاثين. إلاّ أنّني كنتُ نحيفًا جداً، وقامتي طويلة نسبيّاً.

كان همّي الوحيد ألاّ يختفي عن نظري. كنتُ أجري وأنا صامتٌ، أكلّم نفسي فقط لم أطلب النجدةَ أو أصيحُ بالقبض على من اختلس مرتبي؛ فالغضب كان يملأ كياني، وأفكاري كانت شاردةً فيما ستؤول إليه وضعيتي المعيشية طيلة الشهر القادم، وكيف

❖ ـ قاصٌ من المغرب.

سأستطيع توفيرَ المؤونة الغذائية والضروريات التي لا غنى عنها في البيت. أصبحتْ هذه الأشياءُ تبدو لي هي الأخرى بعيدةَ المنال مثل حافظة نقودي

كيس الدقيق.. قنينة الغاز.. ديون البقّال والجزّار.. فاتورة الماء فاتورة الكهرباء.. حليب الرضيع.. إيجار الشقة.

السارق لا يزال يجري، وأنا ما زلت أجري وراءه. كنتُ مصرّاً، وكان إصراري عجيبًا لم أكن أدري أنّني ما زلتُ أتمتّع بكلّ هذه الطاقة والنفس القوي؛ فمنذ مدة طويلة لم أعد أمارس هوايتي الرياضية المفضّلة كرة القدم، إذ شغلتني عنها همومُ الحياة وروتينُ الإدارة وثرثرةُ المقاهي

كانت المسافة بيني وبين غريمي تضيق أحيانًا، وتتباعد أحيانًا أخرى. كانت ينتظر منّي أن أتعبَ وأستسلم. وكنتُ أنتظر منه أن يتعثّر أو يسقط فأنقضّ عليه. كنتُ شبه يائس من استرجاع حافظة نقودي. ولهذا بدأتُ أستعرض في مخيّلتي أسماءَ الأحباب والأصدقاء الذين قد ألتجئ إليهم في محنتي، لكنّني لم أطمئنّ إلى أيّ أحد منهم؛ فهم ـ كما قيل ـ «في الشدائد قليلُ »

سباقنا لا يزال مستمرّاً، لكنّني بدأتُ أشعر أنّ أنفاسي تتلاحق بسرعةٍ أكبر، وخفقات قلبي تدقّ بعنف، وحبّات العرق تَنْبع من جبيني وظهري وتنساب بين ثنايا أضلعي، فتبلّل قميصي وملابسي الداخلية.

عند نهاية الشارع الطويل انحرف اللصُّ يمينًا ـ كان يريد أن يضلّلني بتحويل الاتجاه صوبَ زقاق ضيّق. لكنّني كنتُ قريبًا منه في المكان المناسب. غير أنّه حينما غيَّر وجهتَه نحو حيٍّ هامشيٍّ في ضاحية المدينة، تيقنتُ أنّ السباق دخل مراحله الأخيرة: فإمّا أن أَستْجمع طاقتي التي بدأتْ تنهار، أو أرفعَ الرايةَ البيضاء.

كان الحيُّ الذي اتّجه إليه السارقُ يضمّ في أغلبه بيوتًا شُيِّدتْ حيطانُها من الطين، ودُعِّمتْ سقوفُها بالخشب، وفي مدخله حنفيةُ ماء أحاط بها العديدُ من النساء وبناتهنّ. بعضُهنّ يغسلن الثياب، والبعضُ الآخر يملأن الأواني بالمياه. وفي الجانب الآخر مجموعةٌ من شبّان الحيّ يلعبون كرةَ القدم فوق أرضٍ فسيحةٍ متربة. كان الغبار يلفّهم وهم يتصايحون ويتشاتمون، أو يهلّلون لإصابة هدف أو مراوغةٍ جميلة. ثم خفّ ضجيجهم حين اتّجهت أعيُنُهم صوبنا.

في هذا الوقت شعرتُ أنّ السارق قد أخذ منه التعبُ مأخذَه، فالتفتَ وراءه ليتأكّد من المسافة التي تبعدني عنه، ثم حاول أن يتملّص من مراقبتي اللصيقة بالاختباء في أحد الأركان. ولمّا لم يُجدِْه ذلك نفعًا، دخل أحدَ المنازل.

كان الفناءُ فسيحًا جدّاً، شُيِّد على شكل مربّعٍ يضمّ عدة غرف متقاربة. واتّضح لي أنّها تؤوي عائلاتٍ مختلفة، إذ جلستْ بعضُ النساء خارج هذه الغرف متباعداتٍ، وانهمكنَ في أشغالهنّ المختلفة، مثل غزلِ الصوف وطبخِ الطعام، بينما اكتفت الأخرياتُ بتبادل الحديث، في حين كان الأطفال الصغار يمرحون أمامهنّ في الباحة الواسعة.

دخل السارقُ إحدى غرف المنزل وكان بابُها مفتوحًا يَحْجب ما بداخلها ستارٌ من ثوب رخيص بَهت لونُه وحينما دخلتُ الغرفةَ في أثره مباشرةً، عقدت الدهشةُ لساني: فقد كان يجلس لاهثَ الأنفاس على لحافٍ قديمٍ يضع سبّابةَ يده اليمنى على شفتيْه يطلب منّي السكوت، وباليد الأخرى يسلّمني حافظةَ نقودي وكان في الوقت نفسه يشير بعينيه إلى داخل الغرفة، حيث وُضِعَ في ركنٍ منها سريرٌ تنام عليه امرأةٌ طاعنةٌ في السنّ، كانت تتدثّر بأغطية صوفية ولا يَظْهر سوى وجهها النحيل الشاحب، ويبدو على محيّاها المرضُ الشديد. كان سعالها مستمرّاً يكاد لا يهدأ، وبين الفيْنة والأخرى تئنّ أنينًا موجعًا يبعث على الشفقة والسأم وبعينيْن واهنتيْن التفتتْ إلى السارق وقالت له بصوتٍ يمتزج بالأنين:

ـ عبّاس.. هذا أنت؟ إنّ الصداع يقتلني يا ولدي. هل أحضرتَ الدواء؟ لقد اشتدّ عليّ المرض.. إنّني أموت.

وحين لاحظتْ وجودي، وكنتُ لا أزال واقفًا، قالت والكلماتُ تَنْبعث منها بصعوبة بالغة

ـ مَنْ هذا الرجل الذي حضر معك؟ دعه يجلسْ! لماذا تركتَه واقفًا؟

ثم وَجّهتْ كلامَها إليّ قائلةً:

ـ اجلسْ يا ولدي. لتشربْ معنا كأسَ شاي ستُعِدُّه زوجةُ ابني، لأنّني لا أقوى على النهوض

كانت تتوقّف بين جملة وأخرى كي تستردّ أنفاسَها المتقطّعة ثمّ تواصل الكلام. وكانت المفاجأة لا تزال تَلْجم لساني. بقيتُ مشدوهًا برهةً وجيزة، ثم اقتربتُ من المريضة العجوز وقبّلتُ رأسَها وأنا أقول

ـ شفاك اللّهُ يا والدتي جئتُ فقط لأطمئنّ عليك، سأشرب الشاي في مناسبة أخرى

بعد ذلك تراجعتُ خطوتيْن إلى الوراء ووقفتُ أمام عبّاس وتبادلنا النظرات في صمت

فتحتُ حافظةَ نقودي واستخرجتُ منها بعضَ الأوراق المالية ووضعتُها في يده، دون أن أتمكّن من عدّها.

غادرتُ الغرفة مسرعًا، فوجدتُ أنّ بعضًا من النسوة والأطفال قد تحلّقوا حول بابها

كانوا يَنْظرون إليّ باندهاشٍ وعلاماتُ الحيرة بادية على محيّاهم.

مرّاكش

بيروت

. سامي مهدي .

تموز ١٩٧٦

إذنْ هذه هي بيروتُ ضائعةٌ في الزحامْ
تُحَدِّقُ في الوجهِ والوجهِ.
كلُّ الملامحِ كالحةٌ،
والكلامْ كثيرٌ
ولا شيءَ غيرُ الكلامْ.
إذن، هذه هي بيروتُ،
سيِّدةٌ كَثُرَ المولَعُونَ بها،
فإذا جاءها الطلْقُ
أجهضها قاتلٌ ومضى في سلامْ.

تموز ٢٠٠٦

سلامٌ لبيروتَ،
تَنْهضُ ثانيةً دونَ كلِّ النّيامْ.
سلامٌ لها تتوضَّأُ بالنارِ قبلَ الكلامْ.
سلامٌ لها وهي تَجْمعُ أطرافَها وتردُّ السلامْ.
سلامٌ لها كلّما اصطخبَ البحرُ،
واهتاجتِ الريحُ من حولِها،
وتنادتْ صخورُ شواطئِها للقيامْ.
سلامٌ لبيروتَ.
ألفُ سلام لها
وَهْيَ تكتبُ
بالدمِ والدمعِ
عنوانَ فصلِ الختامْ!

بغداد